خمسون عاماً بعد خطاب الذرّة من أجل السّلم

بقلم : سوزان آيزنهاور

صورة دوايت د. ايزنهاور

سوزان ايزنهاور

تبعت إحدى أكثر مَوْروثات دوايت أيزنهاور السياسية أهميةً من إدارته للمسألة النووية. وبعد خمسة عقود من خطاب أيزنهاور بعنوان "الذرّة من أجل السّلم" أمام الأمم المتحدة، تستمر المعضلة النووية. ولكنّ العالم الآن مكانٌ مختلفٌ (ولربما أضيفُ أنه مكان أفضل) عمّا كان سيكون لو لم تتبلور تلك الرؤية أو لم تتقدّم تلك المقترحات.

تصعب إعادة صنْع المناخ العالمي الذي ساد في عام 1953، وهو العام الذي تُلي فيه الخطاب. فالرُعب النووي الذي انطلق من عقاله في المجزرة الذريّة بهيروشيما وناغازاكي عند نهاية الحرب العالمية الثانية، تصاعد في السنوات الأربع اللاحقة حينما اختبر السوفييت سلاحاً نووياً في أغسطس/آب 1949، وحذت بريطانيا حذوه بدون مساعدة من الولايات المتحدة، وذلك في الثالث من شهر أكتوبر/تشرين الأول 1952.

ومع الزمن الذي كانت فيه الحرب الكوريّة مستعرة بعد شهر واحد فقط (أي في نوفمبر/تشرين الثاني من عام 1952)، دخل العالم عصر القنبلة الهدروجينية. ويختزن هذا السلاح النووي الذي اختبرتْهُ الولايات المتحدةُ مقْدرةً مخيفةً على التدمير. فلدى تفجير القنبلة الهدروجينية، بَخّر هذا السلاح الجزيرة التي جرت فوقها تجربته (أي جزيرة Elugelab) وفتح حفرةً تحت الماء بلغ قطرها 1500 ياردة. وقد أوضح هذا الخيار إمكانية إبادة نووية كاملة في حال امتلكت أممٌ أخرى مثل هذا السلاح.

ومن ثم بعد أقل من سنة (وتحديدا في 19 أغسطس/آب 1953)، أعلن الإتحاد السوفييتي أنه كَسرَ بنجاح احتكار الولايات المتحدة لهذا السلاح الهدروجيني. لقد كادت تلك الدولة أن تُدمّر تماماً أثناء الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي من شأنه أن يوضح أن ثرا، أمّة ما لا يشكّل مطلباً مُسبقاً لاكتساب المعارف النووية وقُدْرتها. وكان من الواضح أن العالم إذا تابع نهجه الراهن، سرعان ما ستستطيع أمم عديدة أخرى تطوير واكتساب السلاح النووي.

ما الذي يمكن فعله لاستهداف التناقضين الفطريين في الذرّة ؟

فالذرّة من ناحية أولى سلاحٌ مُطْلَقٌ يستطيع إحداث تدمير لا يمكن تصوره، وهي من ناحية ثانية تفيد كرادع وتدخل بشكل أساسي في حسابات أمننا الوطني. وعلاوة على ذلك، تَعْرض أوجه التقدم في المجال النووي وعْداً بإمكانية تجهيز الذرّة قوةً نوويةً لا حدود لها من الناحية الذهنية لصالح الطاقة والأغراض الإنسانية.

لقد تضمّن خطاب "الذرّة من أجل السّلم" عدداً من الأهداف، ولكن هدفه الأشمل كان اقتراح مجموعة أفكار (بمعنى استراتيجية نووية) تدعو السوفييت إلى التعاون دولياً لتحسين البشرية. ولسوف يعيد هذا الأمر إشراك السوفييت بالحوار حول المسائل النووية في وقت توقفت فيه محادثات الحدّ من التسلّح، بل إنه كذلك يقدّم الأمل ومجموعةً عمليةً من الأفكار إلى العالم النامي Developing world ونتساءل هنا: هل يقف عالم ما بعد الإمبريالية، الذي يتنامى استياؤه من المعايير المزدوجة التي تكيل بها الأمم المتقدمة، موقف المتفرج زمناً طويلاً إذا حال النادي النووي دون حرية الوصول إلى المنافع التي تَعدُ بها القوة النووية، أو حدّ منها ؟ قد يكون اقتراح تأسيس مُجمّع للمواد القابلة للإنشطار ذي حماية دولية بدايةً تمكّن الأقطار المتقدمة من نيل منافع هذا العلم الواعد الجديد، في مقابل رفضهم السلاح النووي.

وأخيراً، أراد أيزنهاور أن يعطي الشعب الأمريكي معلومةً معيّنة تشعرهم بأن ضرائبهم من الدولارات، مع ما في تحصيلها من عناء، لم تُصرَف لأغراض مدمرة فقط، وأنه يمكن جَنْي منافع اقتصادية واجتماعية

من هذه البحوث الرائدة.

لقد اضطلع الرئيس بدَوْرٍ فاعلٍ وذكيٍّ في صناعة فكرة "الذرّة من أجل السّلم" وفي كتابة نص الخطاب نفسه. فبعد أن عُرضت عليه مسوّدات للخطاب لا تحصى عدداً، حسبما أعاد إلى ذهن صديق له، قال: "لمّا كانت كل رواية من هذه الروايات تترك لدى السامعين إحساساً جديدا من الذعر، بدأتُ لذلك أبحث بإمعان عن نوع جديد من الأفكار يستطيع أن يجتذب العالم نحو النظر إلى المشكلة الذرّية بأسلوب متحرر وذكيٍّ مع استمرار تفادي الطريق المسدود الذي أوجده عناد الروس في مسألة التفتيش المتبادل والحيادي عن الموارد. لقد أردت أن أعطي شعبي والعالم فكرة خافتة عن الشوط الذي قطعه هذا العلم الجديد ولكن بطريقة لا تخلق ذعراً جديداً". ويقول أيزنهاور لاحقاً: إن الذرّة ليست سياسية ولا فاسقة، بل إن الخيار البشري وحده هو الذي سيقرّر الغرض الذي ستُستخدم من أجله.

كَتَبَ أحد المحللين: "لقد سعى أيزنهاور إلى التوفيق بين التباسات وتناقضات السياسات النووية بحيث يعطي بعض الأمل للمستقبل".

لقد أثمرت "الذرّة من أجل السّلم" عدّة تطوّرات، من ضمنها تأسيس الوكالة الدولية للطاقة الذرّية، ومؤخّراً معاهدة عدم الانتشار النووي، وبينما تتعرض "الذرّة من أجل السّلم"، وكذلك المؤسسات الناشئة عنها، لانتقادات قاسية، فإنه يصعب تصوّر ما كان يمكن أن يكون عليه حال العالم اليوم بدونها. فلو لم يُتَحْ لاقتراح ما أن يوضع موضع التنفيذ في تلك الفترة المحورية من التاريخ لكان حجم الفوضى التي يمكن أن تكون قد نجمت صعب التصور نتيجةً لغياب القيادة.

لقد أحرزت "الذرّة من أجل السّلم" بعض النجاح المتواضع أيضاً في محاولة تدبير مسألة الانتشار Proliferation بالرغم من أنها لم تُثبِتْ نجاعةً في هذا الصدد. وإذا ما أُخذ بالاعتبار عام 1953 أن بعض الأقطار (وربّما جميعها) ستكون قادرة على حيازة السلاح النووي، فإن العدد الفعلي لدول السلاح النووي في هذا القرن ما يزال حتى الآن ممكن التدبير. وإنه لمن المثير جداً، أنه باستثناء اختبارات التطوير، لم يُستعمل أي سلاح نووي منذ الحرب العالمية الثانية، وأن دول العالم أوقفت من حيث الأساس حتى مجرّد اختبار هذا السلاح.

شاركت أممٌ حول العالم، ومن خلال الوكالة الدولية للطاقة الذرّية التي جاءت نتيجة مباشرة لخطاب الرئيس، في برامج بحثيّة وتنموية تتضمّن استخدام الطاقة النووية في تطبيقات مدنيّة مهمّة. فالطاقة الكهربائية النووية تبلغ خُمْسَ كهرباء العالم تقريباً، وفي هذا ما قلّل التوتّرات العالمية من خلال إحلال الكهرباء النووية محل النفط في العديد من التطبيقات، كما أنها زوّدت الكثير من كهرباء العالم التي تتولّد بدون إطلاق لغازات (الدفيئة) Green house أو أية انبعاثات أخرى مهلكة. ونشير هنا إلى أن عدة تقانات أخرى نووية مرتبطة بالإشعاع، وعلى وجه الخصوص منجزات طبية وصيدلانية إشعاعية، قد نجمت إلى حد كبير عن أبحاث أنتجتها "الذرّة من أجل السّلم". وبهذه السيرورة تمّ إنقاذ ملايين الأرواح.

وبينما تبقى "المعضلة النووية" تحدّياً معقّداً، مثلما كان أمرها منذ خمسين عاماً، فإن العالم اليوم لديه مؤسسات مثل الـ IAEA يمكنه الرجوع إليها. ويُعدُّ إصلاح هذه المؤسسات وزيادتها وإغناء صلاحياتها مطلباً عاجلاً.

ولكن ربما باتت النتيجة التي توخاها الرئيس بشدّة، تتحقق فعلاً. فالولايات المتحدة وروسيا تعملان اليوم، بتعاونٍ وثيق على ضمان أمن

دافيد، مامي، باربارا، ماري، جون، آن، دوايت و سوزان في البيت الأبيض، 25 ديسمبر/كانون الأول 1957

المواد النووية وعلى تخفيض ترسانتيهما النوويتين، كما ويتحقّقُ قدرٌ غير مسبوق من حرية الاستجلاء والشفافية مُذْ تمّ الالتزام بالتحقق المتبادل Mutual verification باعتبار هذا الأخير جزءاً من اتفاقية معاهدة عدم الانتشار لعام 1987. وبينما ما يزال العمل المشترك المتعلّق بالخَفْضِ التعاوني للتهديد بحاجة إلى مزيد من التحسين، فقد تمّ إنجاز الكثير في هذا الصدد.

لقد كان خطاب أيزنهاور "الذرّة من أجل السّلم" رؤيةً وليس مخطّطاً، وهو لم يكتف بإضفاء الشرعية الرئاسية على التعقّب الدولي للطاقة الذرّية، بل ورفع منزلة الولايات المتحدة في عيون العالم الثالث. إن العالم وهو على عتبة فَنَاء نووي، يمتلك خياراً يجب أن يتخذه. وقد أكّد أيزنهاور (في خطاب الثامن من ديسمبر/كانون الأول)، أعمق أمله قائلاً: "إن الولايات المتحدة تتعهد أمامكم، وبالتالي أمام العالم، بالالتزام لحل المعضلة الذرّية المخيفة، وبتكريس قلبها وعقلها لإيجاد السبيل الذي لن يودي بإبداعية الإنسان الإعجازية إلى حتفه، بل يُكرّسها لمَحْياه".

سوزان أيزنهاور هي رئيسة شركة مجموعة أيزنهاور، وهي شركة استشارية مقرها في واشنطن العاصمة، تقدم نصائح سياسية واقتصادية وتجارية واستثمارية لخمسمئة من الشركات والمقاولين الأثرياء. والأنسة أيزنهاور، إضافة لعملها الاستشاري، هي مؤسسة مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ورئيسته. وهي حفيدة رئيس الجمهورية دوايت أيزنهاور.